٢١

صيد اللؤلؤ فى الخليج

حديث ابـن بطوطـة عـن اللؤلـؤ فى الخليـج وصيده

رافقنا ابن بطوطة فى الفقرة السابقة على الضفة الشرقية للخليج العربى حتى جزيرة قيس فى طريقه إلى القطيف ونَجْد ثم الحجاز ليحج حجته الثالثة . وقد لاحظنا أنه وقع فى بعض الأخطاء فى حديثه عن هذه المنطقة ، وسنراه فى حديثنا هذا يقع فى وهم كبير فى كلامه عن اللؤلؤ ومغاصاته ، وهو يقول إن تلك المغاصات بين سيراف والبحرين فى خور راكد، ويقول إن معظم أهل سيراف عَجَمٌ وفيهم طائفة من عرب بنى سفاف كما يقول ، وقد تكون صحة الاسم : سَقَّاف .

وهو يصف خور اللؤلؤ هذا بأنه مثل الوادى العظيم ، وسآتى بكلامه على تواليه نظراً لأهميته لأهل منطقة الخليج كلها ، وسنعلّق عليه بعد ذلك بما يقتضيه المقام ، قال :

« فإذا كان شهر أبريل وشهر « مايُه » تأتى إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغِيلَم وهى السلحفاة ، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المِقراض يشدُّه على أنفه ، ثم يربط حبلاً فى وسطه ، ويغوص .

ويتفاوتون فى الصبر فى الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك ، فإذا وصل إلى قاع البحر وجد الصَّدَف هناك فيما بين الأحجار

الصغار مثبتاً فى الرمل ، فيقتلعه بيده ، أو يقطعه بحديدة عنده معدَّة لذلك، ويجعلها فى مخلاة جلد ، منوطة بعنقه ، فإذا ضاق نَفَسُهُ حَرَّكَ الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب ، فتؤخذ منه المخلاة ويُفتح الصَّدَف ، فيوجد فى أجوافها قطع لحم تُقطع بحديدة ، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خُمْسَهُ، والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له الدَّيْن على الغواصين ، فيأخذ الجوهر فى دَينه أو ما وجب له منه » (ص ٢٦٩) .

وهذه الفقرة تدل على أن ابن بطوطة لم يشهد عملية الغوص بنفسه ، وإنما أخذ المعلومات من أفواه نفر غير عارفين بدقائق عملية الغوص ، وربما أخذها من أصحابه الفقهاء ، وهذا أمر يُستغرب من رجل طلعة مثل ابن بطوطة تَشُوقُهُ رؤية كل غريب ، والغوص على اللؤلؤ كان من أغرب ما يمكن للإنسان مشاهدته .

وربما كان السبب فى ذلك أن إقامته فى البحرين والقطيف ومنطقة رأس الخليج جملة لم توافق فترة الغوص ، فقد كان فى هذه المنطقة فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٣٣٢م ، لأنه حج حجته الثالثة فى ذى الحجة ٧٣٢ هـ أى: أواخر أغسطس وسبتمبر ١٣٣٢ م فكان فى منطقة رأس الخليج قبل ذلك بشهرين مثلاً ، أى: فى يونيو ويوليو كما قلنا ، وموسم الغوص كان فى أبريل ومايو كما يقول ، أى : قبل أن يصل إلى المنطقة بشهر وربما بشهر ونصف .

لهذا يقول إن الغواص يستطيع البقاء تحت الماء ساعة أو ساعتين ، وهذا غير ممكن أو معقول - وبهذه المناسبة نذكر أن شاردان يقول إن الغواصين يمكثون تحت الماء قرابة ربع الساعة وهذا أيضاً مستبعد - ويقول كذلك أن اللؤلؤ يكون قطعاً من اللحم إذا باشرت الهواء جمدت وصارت جواهر وهو أمر غير صحيح كما نعرف .

ولكن ابن بطوطة أعطانا - على أى حال - فكرة عن نظام الغوص فى أيامه وكيفية خروج الغواصين للغوص وعن الضريبة التى كان يجبيها السلطان وهى خُمس اللؤلؤ المستخرج ، وهى النسبة الشرعية لنصيب الدولة من الرِّكَاز ، وهو كل ما يُستخرج من باطن الأرض ، وملاحظته عن إقراض التجار المال للغواصين قبل موسم الغوص واستيفاء التجار لديونهم بعد الصيد ملاحظة لها أهميتها .

البحرين

من سيراف سافر ابن بطوطة إلى البحرين ، وهو يقول عنها : « وهى مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قليل المؤنة يُحفر عليه بالأيدى فيوجد، وبها حدائق النخل والرمان والأترج وهى الفاكهة المعروفة بالليمون المر أو الجريب فروت ، ويزرع بها القطن ، وهى شديدة الحر كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها . وكان فيما بينها وبين عُمان طريق استولت عليه الرمال ، وانقطع فلا يُوصَل من عُمان إليها إلا فى البحر » (ص ٢٧٠) .

وهذه عبارة تدل على أن لفظ البحرين كان يطلق على الجزيرة المعروفة بذلك الاسم اليوم . واسمها الأصلى : أوال . ويطلق كذلك على الشاطئ المقابل لها من أرض الجزيرة ؛ فابن بطوطة يتحدث عن جزء الساحل لا عن الجزيرة بدليل أنه يذكر أنه بالقرب منها جبلا كسير وعُويمر .

عيون مياه عذبة تتفجر فى قاع الخليج

ويتحدث ابن بطوطة عن أنهار تحتية تجرى بالماء العذب بين جزيرة البحرين وشاطئ البحرين ، وهذا صحيح ، ولكن هذه الأنهار عيون تتفجر فى قاع البحر بالماء الحلو . وفى العصر التركى كان هناك غواصون يغوصون فى الماء ومعهم قِرَب من الجلد يملئونها بالماء الحلو ثم يصعدون إلى السطح . وكان البرتغاليون يستخرجون هذا الماء بأنابيب ، وإلى حين قريب كان أهل الخليج يفعلون ذلك.

القطيف

ومن البحرين سافر ابن بطوطة إلى القطيف . وقد سمع نطقها : القُطَيف . وهو يذكر أن أهلها عرب من غلاة الروافض - ويريد بذلك : غلاة الشيعة - ومنها انتقل إلى هَجَر ويقول إنها تسمَّى الآن الحسا . وهذا خطأ ؛ لأن الحسا هو اسم الإقليم الذى فيه ميناء القطيف .

ولكن المستشرق هاملتون جيب فى تعليقه على مقتطفاته من ابن بطوطة وقع فى خطأ أكبر ؛ فقد قرأ هَجَر « حَجَر » وترجمها بلفظ Stone ، وقرأ الحسا بالصاد : الحصى، وقال إن معناها bebbles . والمعروف أنها جمع حِسِىّ ، وهو البئر القريبة القاع ، والجمع : حَساً وأحساء ، والاسمان مستعملان .

وهذا أمر مستغرب جدًّا من مستشرق ضليع مثل السير هاملتون جيب لا يغيب عنه مثل ذلك ، ولا يعلل هذا إلا بأن تلميذاً من تلاميذه كان ينسخ له المخطوط فأخطأ فى النقل ، وربما كان هذا التلميذ يقوم بالترجمة ؛ ولا تعليل لذلك إلا بأحد هذين الافتراضين .

اليمامة

ثم ينتقل إلى اليمامة ويقول إنها تسمَّى أيضاً بحَجَر ، وهو يمتدحها ويقول إنها مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار ، يسكنها طوائف من العرب من بنى حنيفة . وهم كانوا أهلها على طول الدهر ، وكان أميرهم فى أيامه طفيل بن غانم ، وفى صحبة هذا الرجل حج ابن بطوطة حجته الثالثة ، وهو لا يذكر أىَّ تفاصيل عن الحجاز فى حجته تلك ، فيما خلا قوله إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر حج فى هذه السنة وهى ٧٣٢ هـ ، ومعنى ذلك أن حجة ابن بطوطة هذه كانت فى أوائل سبتمبر ١٣٣٢م . وهنا يذكر ابن بطوطة بعض التفاصيل عن قتل الملك الناصر لولد من أولاده يسمَّى أحمد تآمر هو وأمير على السلطان ، يسمَّى بُكتُمُر الساقى .

وكانت نية ابن بطوطة معقودة على السفر إلى اليمن ومنها إلى الهند ، ولكن الله لم يكتب له الوصول إلى اليمن هذه المرة أيضاً ؛ فقد أقام فى جدة

أربعين يوماً حتى علم بأمر سفينة لرجل يسمَّى عبد الله التونسى ، فصعد عليها ، فلم تَرْضَ عنها نفسه وعزف عن ركوبها ، وكان ذلك من لطف الله به ، فقد غرق هذا المركب بعد إقلاعه عند رأس يسمَّى رأس أبى محمد، ونجا نفر من أهله فى العُشاريات ، والعُشارية مركب صغير يتسع لعشر أنفس ، وكان يُربط بكل سفينة كبيرة عدد من العُشاريات كأنها قوارب نجاة . العشاريات

ثم ركب البحر بعد ذلك فى صُنبُوق ، ونحن ننطقه اليوم : سُنْبُك ، وهو مركب صغير الحجم ولكنه متين البناء ، وتشاء الصدفة أن تحمله الرياح مرة أخرى إلى فُرضة رأس دوائر على شاطئ السودان بين عيذاب وسواكن فى أرض البجاة ، ولكنه هذه المرة لم يسر جنوباً بل اتجه شمالاً فوصل إلى عيذاب ، واخترق وادى العلاَّقى إلى قرية العطوانى المقابلة لمدينة أدفو فى الصعيد الأعلى، وصعد النيل إلى مدينة مصر وهى الفسطاط، ثم اتجه إلى بلبيس فى طريقه إلى الشام ، وهكذا أراد صاحبنا شيئاً وأراد الله غيره ، وأَمْرُ الله بين الكاف والنون . الصُّنْبوق

* * *